التراث الأدبي الشفهي الأمازيغي:
مقومات البنية الفنية والخصوصية الثقافية والجمالية

د. بوفلجة عبد الرحمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس
المغرب

ملخص

يسعى هذا المقال إلى دراسة البنية الفنية والسمات المميزة للأدب الشفهي الأمازيغي، بوصفه مكوّنا أساسيا من مكونات التعبير الثقافي بالمغرب . ويستند هذا الإبداع إلى منظومة من الفنون القولية المتوارثة التي تستمد استمراريتها من الذاكرة الجماعية، وتتجلى في أجناس أدبية متنوعة، تشمل الحكايات والأساطير والأمثال والألغاز فضلا عن الأشعار المرتبطة بمختلف الطقوس الاحتفالية. تتمحور الدراسة حول جانبين أساسيين، يتمثل أولهما في بنية النص الأدبي الشفهي الأمازيغي، بينما يتعلق ثانيهما بخصائصه الأسلوبية وسماته التعبيرية . تخلص الدراسة إلى أن الأدب الشفهي الأمازيغي يتميز ببنية فنية متكاملة تتفاعل داخلها مكونات السرد والإيقاع والرمزية، الأمر الذي يجعله مرجعا أساسيا لفهم الهوية الثقافية الأمازيغية، التي تتأسس على منظومة من القيم الاجتماعية، والروابط القبلية المتينة، وتمثلات فريدة للعالم المحيط.

الكلمات المفاتيح: الأدب الشفهي الأمازيغي؛ البنية الفنية؛ الخصائص الأسلوبية؛ الهوية الثقافية؛ الذاكرة الجماعية.

Résumé

Cet article se propose d'analyser la structure artistique et les caractéristiques distinctives de la littérature orale amazighe, en tant que composante fondamentale du patrimoine culturel marocain. Celle-ci s'inscrit dans un ensemble de productions orales transmises de génération en génération, dont la pérennité repose sur les mécanismes de transmission et de conservation de la mémoire collective. Elle se décline en une diversité de genres littéraires, notamment les contes, les mythes, les proverbes, les devinettes, ainsi que les poésies liées aux différentes pratiques rituelles et festives. L'étude s'articule autour de deux axes majeurs : l'examen de la structure du texte littéraire oral amazigh et l'analyse de ses particularités stylistiques et expressives. Elle met en évidence la cohérence de l'organisation artistique des productions orales amazighes, caractérisée par l'articulation des composantes narratives, rythmiques et symboliques. À ce titre, la littérature orale amazighe constitue un matériau de référence pour l'appréhension de l'identité culturelle amazighe, laquelle s'inscrit dans un système de valeurs sociales, des liens tribaux étroits et des représentations spécifiques du monde environnant.

Mots-clés : littérature orale amazighe ; structure artistique ; caractéristiques stylistiques ; identité culturelle ; mémoire collective.

تقديم:

يعد الأدب الشفهي الأمازيغي مظهرا من مظاهر إبداع الإنسان الأمازيغي عبر التاريخ، يتجلى في مختلف أشكال التعبير المنطوق، من أمثال وألغاز ونكت وحكايات وأساطير وأشعار وغيرها من فنون القول التي تتناقلها الأجيال عبر المشافهة .ويكشف هذا التعدد الأجناسي عن غنى الأدب الشفهي وتنوع تجلياته التعبيرية؛ إذ يتخذ، على مستوى الشكل، من اللغة العامية المحكية وسيلة للتعبير والتواصل، بما تتيحه من إمكانيات لغوية وجمالية تنسجم مع خصوصية السياقات الاجتماعية والثقافية التي ينشأ فيها .أما على مستوى المضمون، فإنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالتجربة الإنسانية في أبعادها المختلفة، مستوعبا ما يعتري حياة هذا الإنسان من مشكلات وتحديات، وما يختلج وجدانه من آمال وآلام وتطلعات، فضلا عن إسهامه في نقل القيم والتصورات وصون الذاكرة الجماعية الأمازيغية.

من الخصائص الجوهرية التي تميز هذا الأدب الشفهي خضوعه لمنطق الملكية الجماعية، حيث يتجاوز النص حدود المبادرة الإبداعية الفردية ليندمج، بفعل التداول والتوارث، ضمن الرصيد الثقافي المشترك للجماعة. فإذا كانت هذه الخاصية ترتبط عادة بما يعرف ب "مجهولية المؤلف"، فالأصح أن نقول "تجاهل المؤلف" كونه يبدو الأكثر دقة في التعبير عن طبيعة هذه العلاقة؛ ذلك أن المبدع الأصلي قد يكون معلوما في مرحلة نشأة النص، غير أن تداوله الشفهي وتبني الجماعة له يؤديان تدريجيا إلى تراجع حضور صاحبه، بحيث تصبح نسبته إليه غير مؤكدة، أو تغدو هويته أمرا ثانويا لا يحظى بالأهمية ذاتها التي يكتسبها النص في سياقه الجماعي، ولا سيما بعد وفاة مبدعه. وعليه، فإن جماعية الأدب الشفهي لا تنفي بالضرورة أصله الفردي أحيانا، بقدر ما تشير إلى تحوّله إلى ملكية ثقافية مشتركة، تستمد استمراريتها من التداول وإعادة الإنتاج والتوارث عبر الأجيال.

إن مفهوم الأدب الشفهي الأمازيغي ونحن نصفه بكونه شفهي، لا يطرح لنا المفارقة التي تطرح على مستوى بعض اللغات الأجنبية كالفرنسية Littérature Orale والإنجليزية Oral Literature وكلا المفهومين مشتقان من اللفظة اللاتينية Littera بمعنى الحرف (lettre)، ويحيلان مباشرة إلى المكتوب، ومفهوم Oral Literature عند الباحثين الغربيين كما يعتبره **أونج** هو مفهوم مشوه، لأنه يفترض أن كل إنتاج لا يكون إلا صورة أخرى للأدب المكتوب أو تابعا له وإن لم تتوفر ثمة علاقة بينهما على الإطلاق. فالشفهي هو الأولي أما الكتابي فهو الظاهرة الثانوية التابعة لها ووصف Littérature orale هو محاولة وصف الظاهرة الأولية انطلاقا من ظاهرة ثانوية تالية لها، لا يمكن التقليل من وجوه الاختلاف بينهما دون تشويه معيق وخطير[1].

تم وضع مصطلح آخر وهو Preliterature/Prélittérature معناه ما قبل الكتابي، لكن الأمر ينطوي هنا على مفارقة تاريخية؛ لأننا نطرح الشفهية النظام المعياري الأولي بوصفها انحرافا عن النظام المعياري الثانوي الذي كان تاليا له[2] .

مهما اختلفت التسميات والمفاهيم وتعددت الآراء والتعاريف، إن الأدب الشفهي الذي يخلقه الإنسان المبدع فردا أو مجموعة من الأفراد في قوالب فنية تروق ذوق الجماعة، وتتوافق مع أعرافهم من حيث الشكل والموضوع. "لا يتخذ شكله النهائي إلا حين يصل جمهوره بل يتم له الشكل الأخير من خلال الاستعمال والتداول، ثم إن وسيلة إذاعته هي النقل الشفهي لا تلزمه حدودا جامدة، بحيث يكون من المستطاع أن يضاف إليه أو يحذف منه أو يعاد ترتيب عناصره أثناء انتقاله من موطن أدبي إلى آخر أو من راوية أو مؤد إلى آخر "[3] .

إن الأدب الشفهي الأمازيغي سواء صدر عن فرد أو جماعة تتبناه الجماعة في كلتا الحالتين وتمتلكه امتلاكا في الوعي الجمعي وتختزنه اختزانا في الذاكرة الجماعيةla mémoire collective، ينشأ وينقل شفهيا ، وهذا ما يجعلنا نطمئن ونهتدي إلى مصطلح الأدب الشفهي، على أن بعض عناصره يمكن أن تكتب أو توظف كتابيا ، كما أن بعض عناصر الأدب المكتوب يمكن أن تتسرب إلى الرواية

[1] : **والترج أونج** (1994)، الشفاهية والكتابية، سلسلة عالم المعرف، المجلس الوطني للثقافة الكويت ، ص : 61-62.

[2] : **والترج أونج** ، المرجع نفسه ، ص: 62

[3] : **أحمد رشدي صالح** (1971)، الأدب الشعبي مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ص: 23.

الشفهية ، وفي الحالتين لا يمكن الجزم بتحول الأدب المكتوب إلى الشفهي ولا الأدب الشفهي إلى المكتوب فهو مجرد انتقال يكون محفوفا بالمخاطر، لتصبح العلاقة بينهما علاقة تأثير و تأثر، والبون شاسع كما يقول جورج سلامة – بين التراث الشعبي وبين استلهام هذا التراث [4].

مقومات تشكّل بنية الأدب الشفهي الأمازيغي:

يزخر الأدب الأمازيغي برصيد غني ومتنوع من الفنون القولية الشفهية، تشمل الأمثال والألغاز والنكت والحكايات والأشعار وغيرها من أشكال التعبير المتوارثة عبر الأجيال .ولا تمثل هذه الفنون مجرد ممارسات لغوية أو أشكالا للتسلية والترفيه، بل تشكل مكونا أصيلا من مكونات الهوية الثقافية الأمازيغية، بما تختزنه من تجارب تاريخية وتمثلات اجتماعية ورؤى للعالم .وقد أسهم التوارث الشفهي في ترسيخ الصلة بين الأجيال، إذ اضطلع الآباء والأجداد بدور أساسي في نقل هذا الرصيد الرمزي إلى الأبناء والأحفاد، بما يضمن استمراريته وتجدد حضوره داخل الذاكرة الجماعية .ومن ثم، يغدو هذا الأدب الإبداع مجالا تتقاطع فيه الذاكرة الفردية والجماعية، وتتجسد من خلاله خصوصية المجتمع الأمازيغي في التعبير عن ذاته وصيانة موروثه الثقافي.

وتتجاوز وظائف هذه الأشكال التعبيرية حدود التواصل والتسلية، لتؤدي دورا أساسيا في تشكيل الوعي الجمعي وتنظيم العلاقات الاجتماعية وتوجيه السلوك الفردي والجماعي .فهي تختزن منظومة من القيم والأعراف والتصورات الأخلاقية المستمدة من البيئة الاجتماعية والثقافية التي نشأت فيها، كما تسهم في تفسير الظواهر، وتبرير المواقف، ونقل الخبرات المتراكمة بين الأجيال .ويطبع هذه الفنون، في كثير من تجلياتها، أسلوب يتسم بالإيجاز والبساطة والارتباط بالواقع المعيش، دون أن ينتقص ذلك من غناها الفني وجمالياتها التعبيرية؛ مما يجعلها خير وسيلة للتعبير عن خبرة جماعية متراكمة، وعن قدرة الإنسان الأمازيغي على تحويل تجربته الحياتية إلى أشكال إبداعية قابلة للتداول والتوارث.

ولا يمكن مقاربة خصوصية الأدب الشفهي الأمازيغي بمعزل عن الأوساط الجغرافية والاجتماعية التي احتضنت نشأته وتطوره؛ فقد عاشت جماعات أمازيغية عديدة في مجالات طبيعية متباينة، شملت المناطق الجبلية ذات التضاريس الوعرة والمسالك المتعرجة، والمناطق الغابوية، فضلا عن المجالات الصحراوية التي تتسم باتساعها وامتداد كثبانها الرملية .وقد أسهمت هذه البيئات، بما تفرضه من شروط للعيش والتنقل والتواصل، في تشكيل أنماط متعددة من التجربة الإنسانية، انعكست بدرجات متفاوتة في الموروث الشفهي وفي صوره ورموزه وموضوعاته .كما يمكن أن تكون ظروف العزلة النسبية وصعوبة التواصل في بعض المجالات قد عززت أهمية الذاكرة الشفهية والتضامن الجماعي في حفظ المعارف والخبرات ونقلها .غير أن العلاقة بين البيئة الجغرافية والإبداع الأدبي لا ينبغي اختزالها في تأثير حتمي مباشر؛ إذ تتوسطها عوامل تاريخية واجتماعية وثقافية متداخلة، تجعل الأدب الشفهي حصيلة تفاعل مستمر بين الإنسان ومحيطه، وبين التجربة المعيشة والخيال الجماعي ووسائل التعبير المتاحة له.

لقد ضخت العزلة والوحدة في ذهنية الإنسان الأمازيغي تصورات وتمثلات حول هذه الطبيعة وما يدور في محيطها، وسط الظلام الدامس ، فأصبحت مصدرا خصبا للخيال الذي يتصور حيوانات ضارية ك "إزم" الأسد، و"أوشن" الذئب، وغيرهم... وكائنات غريبة ك. "ترگو / تامزا" الغول، و"تگمارت ن إصنضال" فرس القبور، ... فينتابه الرعب والخوف والهول مما يؤدي به إلى تصديق كل ما يتهيأ له على أنه حقيقة؛ ويمكن أن نعتبر هذه الأمور بمثابة المنابع الأساسية الأولى لنشأة المجاز المقترن بالأساطير. وهكذا "يتوهم الشخص طيفا أو خيالا أو شيئا في صورة شخص ذي ملامح محكمة، ولا يبرح به خياله أو وهمه على الأصح، حتى يتصور ما لا يجوز من الكائنات،

[4] : **نبيل جورج سلامة** (1986)، التراث الشفوي .وزارة الثقافة السورية، دمشق، ص : 42.

بحكم هذه الوحشة، وهذه الأماكن المقفرة، فكذلك، ها هنا يتسمع أدنى صوت ويترصد أخف الحركات ولا يزال يتوهمها ويجسمها بوهمه، فتكبر وتضخم، وتتشكل وترقى إلى أن تصبح كلاما يلقى إلقاء وحديثا يلقن تلقينا..."[5].

لقد اعتمد الأدب الشفهي الأمازيغي في إنشائه قديما على الخيال الواسع واللامحدود، فالبيئة الجغرافية بما فيها من جبال وسهول وأودية، خلقت وشكلت عبر تنوعها وشساعتها رؤية لدى الإنسان الأمازيغي المتفاعل معها. فنسج بفضلها أدبا أسطوريا وخرافيا يتيه بين ثناياه المتلقي متلذذا بجمالية اللغة وبراعة صورها الفنية، لتحتضنه وتختزنه الأجيال المتلاحقة والمتعاقبة في الذاكرة الجماعية مشاعا بينها على أوسع نطاق بفضل الرواية الشفهية ، وإن اعتراه بعض التغيير في مضامينه مع مرور الزمن. أبدع الإنسان الأمازيغي عبر خياله الخصب، وإحساسه الرهيف، وملاحظاته الدقيقة، وتأمله لمختلف الظواهر الكونية التي تحيط به ويعيش وسطها عوالم غريبة وبعيدة عن العالم الحقيقي، فاختلق شخصيات حيوانية خرافية تعقل، وتتحدث، وتتزوج بالإضافة إلى مخلوقات جنية مرئية وغير مرئية تتضمنها مجموعة من الحكايات والأساطير التي لا زالت تروى إلى يومنا هذا باللسان الأمازيغي أو مترجمة إلى "الدارجة المغربية" على سبيل المثال حكاية "هاينة".

كانت الظواهر الكونية العجيبة، والطبيعة القاسية تستدعي اهتمام الإنسان الأمازيغي في مختلف بقاع تواجده، وظل شغله الشاغل فهم وتفسير وشرح وتعليل حدوث بعض الظواهر الطبيعية التي تخيفه، كالعواصف الرعدية، والصواعق، والزلازل، والبراكين، المهددة لكيانه واستقراره وحياته بشكل عام. هكذا فإن "تفاعل الإنسان مع بيئته هو الذي يخلق استجاباته وردود أفعاله ومعتقداته، لأن علاقة الإنسان ببيئته هي علاقة أخذ وعطاء، يكون فيها الفرد فعالا تارة، ومنفعلا تارة أخرى"[6]. الشيء الذي يؤكده Krappe وهو يتحدث عن الأساطير والرموز الخاصة بالنجوم Les symboles célestes وكذا الرموز الخاصة بالأراضي Les symboles terrestres[7]. ومن جهة أخرى نجد Eliade يتطرق بإسهاب لتاريخ الأديان والأساطير والرموز الخاصة بالزلازل والبراكين والشمس والقمر والمياه والأرض والزراعة وطقوس تجديد شعائر الإنجاب[8].

تحمل الرموز عامة في طياتها أصول ثقافة المجموعة البشرية التي قامت بإنشائها، ملبية حاجياتها النفسية والدينية (روحية)، ثم العقلية والوجدانية. نرى أن الإنسان الأمازيغي قد تابع باهتمام كبير ودقة متناهية التحولات الطبيعية، وتطلع إلى محاولة معرفة مصيره ومصارعة ظواهر الطبيعة ساعيا في الآن نفسه للاستفادة من عطاءاتها، فأنتجت قريحته الفردية والجماعية أدبا شعبيا غزيرا، نلمس فيه أحيانا الابتعاد عن الواقع الحقيقي والملموس وما فيه من مشاكل وصعوبات. ثم الانتقال إلى عالم الخيال والتمني والغرائب والعجائب والخوارق المتمثلة في قوى غير محسوسة كالجن والحيوانات الخرافية وغيرها. وتجدر الإشارة إلى إسهام المرأة الأمازيغية بدورها إسهاما فعالا في تأليف وإثراء كنز لا ينضب نبعه من التراث الأدبي في مختلف أشكاله، فحفظت لنا صرحا ثمينا يضم الشعر وخصوصا ما يعرف بشعر الهدهدة "أسهروري" أو "أسرراي" ، والنكتة، والحكاية، والأمثال، والألغاز، قدمته لنا ذاكرتها الفذة والقوية بكل سخاء واحترافية. لذلك، تعتبر إحدى الركائز الأساسية لإنشاء واستمرارية جزء كبير من هذا الأدب الأمازيغي الشفهي، ونقله للأجيال على توالي الزمن.

لقد لعب الأدب الشفهي الأمازيغي بمختلف أجناسه دور التعبير الأمين والسفير الأصدق لشواغله وحاجاته ونواياه، فنجد "كل حقبة تاريخية لدى العديد من الأمم المتقدمة قد تركت بصمة أدبية لا تنفصم عن شخصيتها ومشاكلها"[9] ؛ هكذا يكون هذا التراث الإنساني صورة صادقة ذات أبعاد اجتماعية، اقتصادية، ثقافية عميقة عمق الوجود البشري الأزلي، مشيرة في الآن نفسه إلى صراع الإنسان المرير

---

[5] – **مرتاض عبد الملك** (1989)، الميثولوجيا عند العرب، دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة، الجزائر، ص 52.

[6] – **الباش حسن والسهلي محمد توفيق** (1985)، المعتقدات الشعبية في التراث العربي، دراسة في الجذور الأسطورية والدينية والمسلكية والاجتماعية، دار الجليل، ص: 10 – 11.

[7] : **KRAPPE A.H**, (1938), *Genèse des mythes*, Payot, p. 346.

[8] : **ELIADE M**. (1949), *Traité d'histoire des religions*, Payot, p. 402.

[9] : **NACIB Y**. (1981), *Eléments de la tradition orale*, Alger, p. 7.

والشاق من أجل الحياة. فكانت الأحداث التي مر بها الإنسان الأمازيغي القديم أصل كل إنتاج أدبي، قام بتجسيده عبر اللغة، وتفنن في ربط المعاني بالألفاظ ربطا شديدا ووثيقا.

إن هذه الشفهية المطلقة التي يتميز بها الأدب الأمازيغي تقدم غاية ذات بعدين أساسيين: بُعدٌ وطني، كونها تعد جزء من تراث ثقافي للبلاد، ونحن جزء منه بذاتنا وهويتنا، وبُعدٌ علمي لأنه يشكل حلقات ثمينة تفقد يوما بعد يوم بموت حامليها المسنين الذين يشكلون مكتبات حية ومخبرون يقدمون معلومات هامة وقيمة للأنثروبولوجيين. فتمكنت الذاكرة الجماعية الأمازيغية من صيانة هذا التراث المتوارث أبا عن جد منذ القديم وتراكم تراكم الصخور الجيولوجية عبر قرون عدة.

الخصائص الأسلوبية للأدب الشفهي الأمازيغي:

ليس الأدب الشفهي إلا زبدة الأقوال التي تؤثر في المتلقي والآثار الجميلة التي تروى من خلال الخيال الواسع، عبر الإيقاع الجميل الذي يطرب السامع. تصبح الكلمة جسم روحه المعنى، رموزها عصارة التجربة الإنسانية، وقيمتها تكمن فيما يُرمَز إليه في الخطاب الأدبي عبر الصوت الحنون الذي يعتبر خلال عملية الإرسال والاستقبال الوسيلة الوحيدة لاستمرارية وإيصال هذا الأدب حيث يطغى الطابع الشفهي لتظل الشفهية الناطق الرسمي لما اختزنته الذاكرة الجماعية الأمازيغية على مر الزمن.

الإيقاع والأداء:

تعد النصوص الشفهية في نظر **Marcel Mauss** "أولا وقبل كل شيء هي نصوص أعدت لتكون مكررة ومسموعة"[10]. من جهة أخرى تقول الباحثة الأنثربولوجية الفرنسيةCamille Lacoste Dujardin في نفس السياق : "كم هو مؤسف جدا عدم إمكانية نقل وتسجيل النبرات الصوتية التي تعد من السمات المهمة التي تميز الأسلوب الشفوي"[11]، لأنها حينما كانت تجمع النصوص الأدبية الشعبية من رواة منطقة القبائل (آيت منقلات، آيت جناد، بني يني، بني دوالة...) إبان الوجود الاستعماري الفرنسي لم تكن تتوفر على آلة التصوير بغية تسجيل والتقاط الصورة والصوت معا [12].

يمكن اعتبار الإيقاع أهم الخصائص الأسلوبية التي تشكل اللبنة الأساسية للوظيفة التواصلية في الخطاب الأدبي الشفهي الأمازيغي، نظرا لما يحمله من مادة صوتية تتوزع في فضاء الخطاب توزيعا متميزا يمنحه الحيوية ويحقق له الاستمرارية والانتشار على أوسع نطاق.

يتميز الأدب الشفهي بخاصية الأداء الذي يقوم بدور مهم من خلال النسق الذي تشكله الحركات التي تقوم بها الراوية أو الراوي أثناء عملية القص لما لها من أهمية بالغة في كينونة هذا الأدب الشفهي، على مستوى الحكاية مثلا يستحيل استبعاد الحركات لأنها تكشف عن الحيوية والحركة داخل النص المحكي.

التكرار والإيجاز:

يمنح التكرار للنص الأدبي الشفهي قوة داخلية هائلة تخلق فيه الفعالية والاستمرارية والقدم والأصالة ويكسبه قدرة في التأثير المستمر على الجمهور المتلقي.

---

[10] : **Marcel Mauss** (2002), *Manuel d'ethnographie*, Payot, Paris , p : 26.

[11] :**Camille Lacoste Dujardin** (2011) *Signe et rituels magiques des femmes Kabyles*,Ed : Karthala, Paris, p : 25-26.

[12] : **حورية بن سالم**، مرجع سابق ، ص: 232.

تتصف الأمثال والألغاز خصوصا بميزة الإيجاز الشديد لأن الرواية الشعبية تميل إلى إنشاء جمل قصيرة، لضمان انتشارها بين أكبر عدد من المتلقين وجعل حفظها سهلا في متناول الجميع، وروايتها ميسرة، ونقلها ممكنا ومضمونا. فالنصوص الأدبية الشفهية "إنجاز لغوي بني وفق أسلوب يطبعه إيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية"[13].

على سبيل المثال نذكر ما يلي :

المثل بالأمازيغية : "أور دا تاسي تمارت تمارت غاس غر إسمضال"

تعريبه : لا يحمل الرجلُ الرجلَ إلا للمقبرة

اللغز بالأمازيغية : "أضرغال إنده أضرغال"

تعريبه: أعمى يقود أعمى (العكاز والأعمى)

الصور الفنية:

تمثل الكلمة أولى اللبنات الأساسية في إنشاء النصوص سواء كانت نثرا أو شعرا، وهي تتضمن مجموعة الصور التي تنقل لنا الفكر أو التجربة، ولعل خير وسيلة للنظر في حركة الخطاب الأدبي هي الانطلاق من مصدره اللغوي.

تتمظهر السمة الفنية في النصوص الأدبية الشفهية الأمازيغية من خلال الطاقات الإيحائية الكثيفة الكامنة في ثناياها، لأن هذه الميزة يفتقر إليها الكلام العادي الذي تطبعه كثافة التصريح وتتقلص فيه ظاهرة الإيماء موظفا اللغة توظيفا نفعيا. بمعنى آخر، إن "أدبية الخطاب هي نقيض للنفعية التي يتميز بها الكلام اليومي في استعمال الناس للغة، ويعني هذا النقيض أن الأدبية قوة إيحائية مكثفة تسكن النص وتمتد على كل أطرافه حتى تضيق معها مساحة التصريح، وتُغيّب الأسلوبية التعبير المباشر، كما يمكن اعتبار الأدبية اختيار يقوم به المتكلم معتمدا على مخزونه اللغوي الضمني أي التمكن compétence " [14] .

إن الصورة اللغوية تمنح الكلمة الحركة واللون والإيقاع، ما يجعلها أجمل من واقعها، والصورة الفنية تحكي أشياء وتتحرك في أوضاع وتوحي بمعان. فالمؤلف الشعبي عندما يضع الصور، إما يصور الأشياء كما كانت أو كما هي في الواقع، أو كما يصفها الناس وتبدو عليه، أو كما يجب أن تكون، وإما يصورها بالقول ويسجل الكلمة مجازيا[15]. فالأمثال والأشعار والألغاز هي تعابير شعبية منحوتة من لغة لا يتوقع المتلقي حضورها، مبنية على علاقات تخيب ظنه أحيانا وتروق ذوقه أحيانا أخرى. تراوغ ترقبه وتجعله يتيه في فك رموزها محاولا اختصار المسافات لإيجاد المعنى الكامن.

ومن خصائص الأدب الشفهي الأمازيغي خلق التأثير على المتلقي ليصير مفتونا ومعجبا ومتلذذا في آن واحد في جو تطبعه لذة الكلمات فتطربه كالموسيقى رغم أنها ليست بالموسيقى، فيدخل النص في علاقة حميمية بالمتلقي من جهة، وبالعالم الذي يصفه ويصوره المبدع من جهة أخرى. أحيانا تُقدَّم الصور الفنية في عبارة أو جملة يغلب عليها الوصف المحض، لكنها توصل إلى خيالنا أكثر من انعكاس متقن

---

[13] : **حورية بن سالم**، مرجع سابق، ص: 238.

[14] – **نور الدين السد** (1997)، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث (تحليل الخطاب الشعري والسردي)، ج 2، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ، ص 92.

[15]– **الداية فايز**(1996)، جماليات الأسلوب (الصورة الفنية في الأدب العربي)، دار الفكر، لبنان، ص 81.

للحقيقة الخارجية، لأن عملية الإبداع الفني يمتزج فيها الشعور بالفكر، والعاطفة بالخيال. فاللفظة، حين يستعملها الأديب أو الشاعر، تصبح لغة شعرية أو أدبية، خضعت للتجربة الشعرية في نفس الشاعر أو لمقتضيات التعبير الإبداعي لدى الأديب المبدع.

على سبيل المثال نذكر ما يلي :

تماوايت : "إقيم الحيز نس غاس أد ياود بيض إكيي جاري د أوغماس، إعدباخ س بيض إيراح أونودم نيا أم أوموضين أور إزري قاع حد"

تعريب: تزداد حدة الشوق له في الليل، ويهجرني النوم تاركا إياي أتعذب مثل المريض الذي لم يزره أحد.

يتضمن المتن الشعري أعلاه أبعادا تصويرية وجمالية تكشف عن عمق التجربة الوجدانية التي يعيشها الشاعر(ة)، إذ يتخذ الشوق في الليل منحى تصاعديا، يتحول إلى قوة نفسية تستولي على الذات وتفقدها القدرة على الاستقرار والراحة .ويبرز الليل هنا بوصفه فضاء زمنيا ونفسيا تتكثف فيه مشاعر الحنين واللوعة، حيث يؤدي هدوء الليل وسكونه إلى استحضار الغائب وتفاقم الإحساس بغيابه . أما قوله:" إيراح أونودم" ، فيقوم على الاستعارة المكنية والتشخيص، إذ شبّه النوم بإنسان قادر على الهجر والابتعاد، وحذف المشبّه به وأُبقي على إحدى صفاته، مما يضفي على النوم طابعا إنسانيا، ويجسد الأرق في صورة علاقة وجدانية قوامها الهجر والحرمان .وتكمن القيمة الجمالية لهذه الصورة في تحويل حالة نفسية مجردة، هي فقدان القدرة على النوم، إلى مشهد محسوس يوحي بالوحدة والاضطراب الداخلي.

وتتعمق الدلالة الوجدانية في قوله: "نيا أم أوموضين أور إزري قاع حد"، حيث تقوم الصورة على التشبيه، إذ يشبّه الشاعر(ة) حاله بحال مريض تُرك وحيدا دون زيارة أو مؤانسة .ولا تقتصر وظيفة هذا التشبيه على التعبير عن المعاناة، بل تتجاوزها إلى إبراز ما يرافقها من شعور بالوحدة والإهمال والحاجة إلى العطف والاهتمام .كما أن استحضار صورة المريض يضفي على الشوق بعدا جسديا ونفسيا، فيغدو أشبه بداء يستنزف الذات ويقوض راحتها، بينما يوحي غياب الزائرين بانقطاع الصلة بالآخرين وافتقاد المواساة .وتنبع جمالية هذا التعبير من تضافر الصورة الحسية مع الانفعال النفسي، ومن قدرته على نقل تجربة ذاتية خاصة إلى مشهد إنساني قابل للتعاطف .وهكذا، تتكامل صور الشوق والأرق والمرض والوحدة لتشكّل بنية تصويرية تنقل معاناة الشاعر (ة) من مستوى الإخبار المباشر إلى مستوى التعبير الفني المؤثر، حيث يصبح الغياب تجربة مؤلمة تستحوذ على الجسد والنفس معا.

يتميز الأدب الشفهي الأمازيغي بأهم الخصائص والمميزات التي تعد من نصيب الإبداع الشفهي، تضفي عليه صفة الأدبية بين الآداب العالمية، وتمنح له طاقة دلالية. لعل "هذه المظاهر في تمثلها وتماثلها وفي اختلافها وتباينها، وفي تواترها وتكرارها، هي التي أفضت إلى إيقاعية الشفويات من أمثال، وألغاز، وحكم، وأغان فولكلورية، وألحان شعبية موروثة... فالإيقاع الموسيقي ذاته آت من الطبيعة الأولى، مستوحى من تعامل الإنسان منذ الأزل مع هذه الطبيعة ومظاهرها"[16].

إن وجود ولزوم هذه الظواهر بمختلف أنواعها كالإيقاع، والأداء، والتكرار، والاختصار، والصور البديعية لمعظم الأجناس الأدبية الشفهية الأمازيغية كالأمثال، والألغاز، والحكايات، والنكت، والأشعار هي التي تمنح الحيوية للإبداع الأدبي وتتيح له البقاء بدخول عتبة الخلود وتجعله يستوطن فضاء الذاكرة الجماعية الأمازيغية.

[16]- **عبد المالك مرتاض** (1989)، مدخل إلى نظرية الثقافة الشعبية، جامعة وهران، ص: 49.

خاتمة

في الوقت الذي نحكم فيه السيطرة على النص الأدبي الشفهي الأمازيغي، فإن اللغة الأمازيغية أيضا تمارس سيطرتها وسلطتها علينا حيث نتحول إلى مستودع لهذه النصوص وخزانة لها، بما أن النصوص الأدبية الشفهية يصعب وجودها في غياب الإنسان الذي يحضنها، فهو الذي يخشى ضياعها إذا لم يحتفظ بها، ويطيل تذكرها ناقلا إياها من جيل إلى جيل. هذا ما دفع بالقدماء إلى موازنتهم بين الكتابة والمخاطبة، الأمر الذي يجعل النصوص الإبداعية الشفهية حاضرة في مختلف مواقف الإنسان، يستدعيها أمامه ويتمثل بها، وقد يقوم الأشياء من خلالها، وهو ما يجعلها حاضرة في ذهنه كل الحضور، تأخذ بلبه وتسيطر عليه، مما يعطيها سلطة عالية بخلاف لو كانت مكتوبة ومركونة في خزائن.

قائمة المراجع:

-إبراهيم نبيلة (2000)، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط 3، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

-أزضوض إدريس (2011)، المسرح الأمازيغي في الجذور والممارسة، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. (سلسلة : الندوات والمناظرات).

-أزضوض إدريس (2011)، أنطولوجية الشعر الأمازيغي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. (سلسلة : نصوص ووثائق).

-أزضوض إدريس (2012)، الألغاز الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. (سلسلة : دراسات وأبحاث).

-أزضوض إدريس (2012)، ألف مثل أمازيغي ومثلان، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. (سلسلة : دراسات وأبحاث).

-أقضاض محمد (2006)، تاريخ الأدب الأمازيغي: مدخل نظري، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. (سلسلة : موائد مستديرة).

-بن سالم حورية (2015)، أثر اللغة العربية في تكوين الأدب الشفهي الأمازيغي (منطقتا القبائل وبجاية نموذجا)، دار الأمل ، تيزي وزو الجزائر.

-فخر الدين محمد (2017)، الألغاز والأحاجي الشعبية المغربية: دراسة سيميائية، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

-فون ديرلاين فريديريش (1987)، الحكاية الخرافية (نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها)، ترجمة نبيلة إبراهيم، مراجعة عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب ، القاهرة،.

-مرتاض عبد المالك (1989)، مدخل إلى نظرية الثقافة الشعبية، جامعة وهران.

-المنادي أحمد (2011)، الإلهام والتلقي في الشعر الأمازيغي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. (سلسلة : دراسات وأبحاث).

-والترج أونج (1994)، الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، العدد : 182، الكويت.

-Basset, André (1963), Textes Berbères du Maroc (parler des Ayt Sadden), Paris, Imprimerie Nationale, Geuthner.

-Bentolila, Fernand (1986), Devinettes Berbères, 3 tomes, Paris.

-Bentolila, Fernand (1993), Proverbes Berbères, Paris l'Harmattan.

-Bounfour, Abdellah (1999), Introduction à la littérature Berbère. 1- La poésie, Peeters, Paris-Louvain.

-Camille Lacoste, Dujardin (2011), Signes et rituels magiques des femmes Kabyles, Ed : Karthala, Paris.

-Goody, Jack (1993), Entre l'oralité et l'écriture, Paris, Presses universitaires de France.

-Hamri, Bassou (2011), La poésie Amazighe de l'atlas central Marocain, Publications de l'Institut Royal de la Culture Amazighe. (Série : Etudes et recherches).

-Kich, Aziz (2004), La littérature Amazighe, Publications de l'Institut Royal de la Culture Amazighe. (Série : colloques et séminaires).

-Lacoste, Dujardin (1979), « Discours social et contexte de production, passage de l'oral à l'écrit », in LOAB.

-Nacib, Youssef (1981), Eléments de la tradition orale, SNED Alger.

-Nacib, Youssef (1990), Proverbes et dictons Kabyles, Andalouses, Alger.

-Finnegan, Ruth (1988), Literacy and Orality, Oxford, Blackwell.

-Finnegan, Ruth (2012), Oral Literature in Africa. In World Oral Literature Series: Volume 1, Open Book Publishers CIC Ltd, Cambridge, United Kingdom.